تغطية الإسلام
(مقدمة طبعة دار ڤنتج)

إدوارد سعيد
ترجمة: سماح إدريس

تصدر عن دار الآداب هذا الشهر طبعةٌ جديدةٌ من كتاب الراحل الكبير البروفسور إدوارد سعيد، تغطية الإسلام. وقد رأينا أن ننشر هنا مقاطعَ طويلةً من مقدّمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب (دار نشر ڤنتج) على الرغم من أنّ زمن كتابتها هو العام ١٩٩٦؛ فكثير من التنميطات الاستشراقيّة الغربيّة وشيطنة الإسلام والمسلمين والعرب مازالت على حالها، إنْ لم تزدْ حدّةً.

خلال الخمس عشرة سنةً على صدور **تغطية الإسلام** ركّزتْ وسائلُ الإعلام الأمريكيّة والغربيّة بشكلٍ مكثّفٍ على المسلمين والإسلام، ومعظمُ هذا التركيز يتّسم بتنميطٍ أشدَّ مبالغةً، وبعداوةٍ أكثرَ حدّةً، ممّا سبق أن وضعتُه في كتابي هذا. والحقّ أنّ دورَ «الإسلام» في أعمال الخطف والإرهاب، ووصْفَ كيفيّة قيام الدول المسلمة كإيران، بشكلٍ مكشوفٍ، بتهديدِ «نا» وتهديدِ طريقة عيشِنا، والتكهّناتِ بشأن المؤامرة الأخيرة لتفجير المباني وتخريبِ خطوط السفر التجاريّة لتسميم مصادر المياه؛ كلّ ذلك يبدو أنّه يُستخدم بشكل متزايدٍ لإثارة الوعي الغربيّ. ولقد بَرَزَتْ إلى الوجود هيئةٌ من «الخُبراء» في شؤون العالم الإسلاميّ، دُفعوا إلى الظهور على برامج الأخبار و«التوك شو» أثناء الأزمات لكي ينظّروا [كالكهنة] عن الإسلام. كما يبدو أنّ هناك انتعاشًا غريبًا للأفكار الاستشراقيّة المعياريّة «القويمة»، وإنْ سَبَقَ تقويضُها، عن الشعب المسلم، غير الأبيض عامّةً، وهي أفكارٌ تبوّأَتْ مكانةً بارزةً مذهلةً في وقتٍ توقّفتْ فيه التمثيلاتُ المغلوطةُ العنصريّةُ أو الدينيّةُ حيال كلِّ المجموعاتِ الثقافيّةِ الأخرى عن السرَيان بمثل تلك الحصانة. فالحال أنّ التعميماتِ الخبيثةَ عن الإسلام قد أضحتْ في الغرب آخرَ الأشكال المقبولة للحطّ من الثقافات الأجنبيّة؛ وما يُقال عن «العقل المسلم» أو «الشخصيّة المسلمة» أو الدين الإسلاميّ، أو الثقافة الإسلاميّة ككلّ، لا يُمْكن اليومَ أن يُقال في النقاش الذي يُتداولُ في الإعلام السائد عن الأفارقة، أو اليهودِ، أو الشرقيّين الآخرين، أو الآسيويّين.

إذنْ، الصورة معقّدة. هناك فعلاً انبعاثٌ للمشاعر على امتداد العالم الإسلاميّ، وهناك حوادثُ إرهابٍ كثيرةٌ جدًا، منظّمةٌ وغير منظّمةٍ، ضدّ أهدافٍ غربيّةٍ وإسرائيليّة. إنّ الوضع العامّ للعالم الإسلاميّ ـ بانخفاض إنتاجيّته وانخفاض رفاهيّته، بما في ذلك ظواهرُ من قبيل الرقابة، والغيابِ النسبيّ للديموقراطيّة، والسيادةِ المُرْعبةِ للديكتاتوريّات، والدولِ الشديدة القمع والاستبداد، وبعضُها يمارس ويشجّع الإرهابَ والتعذيبَ وتشويهَ الأعضاء التناسليّة ـ هذا الوضع يبدو متخلّفًا ووحشيًا. وهذا يَشْمل دولاً إسلاميّةً أساسيّةً... علاوةً على ذلك، فإنّ الاختزال التسلُّطيّ (بالنسبة إليّ) الذي يمارسه عددٌ من الأشخاص اللائذين بفانتازيا ضبابيّةٍ عن «مكّة القرنِ السابع»، بوصفها دواءً لأمراضٍ متعدّدةٍ في العالم الإسلاميّ اليومَ، إنّما هو خليطٌ غيرُ جذّابٍ سيكون نكرانُه نفاقًا مطْلقًا.

غير أنّ خشيتي هي أنّ مجرّدَ استخدام كلمة [أو رقعة] «الإسلام،» إمّا لتفسير «الإسلام» أو لإدانته عشوائيًا، يؤدّي في

واقع الأمر إلى أن يصبح شكلاً من الهجوم، يستدعي بدوره مزيدًا من العداء بين مَنْ نَصَبُوا أنفسَهم ناطقين باسم الإسلام، والناطقين باسم الغرب. إنّ «الإسلام» يُعرِّف جزءًا صغيرًا نسبيًا ممّا يَحْدث فعلاً في العالم الإسلاميّ، الذي يضمّ اليوم مليارَ شخص، ويحتوي على عشرات البلدان والمجتمعات والتقاليد واللغات، وعلى عددٍ لامتناهٍ بالطبع من التجارب المختلفة. وإنّه لمن الخطأ، بكلّ بساطة، أن نحاول أن نَعْزوَ كلّ ذلك إلى شيءٍ اسمُه «الإسلام،» أيًا ما كان إصرارُ المناظرين المستشرقين الصخّابُ ـ الناشطين بشكلٍ أساسيّ في الولايات المتّحدة وبريطانيا وإسرائيل ـ على أنّ الإسلام يتحكّم بالمجتمعات الإسلاميّة من الأعلى إلى الأسفل، وعلى أنّ «الإسلام» كيانٌ واحدٌ منسجم، وعلى أنّ لا فصلَ بين «الكنيسة» والدولة في الإسلام، وهلمّ جرًا. وأزعم في هذا الكتاب أنّ معظمَ هذا الكلام تعميمٌ غيرُ مقبول، ومن النوع الأكثر انعدامًا للمسؤوليّة، ولا يُمْكن أبدًا استخدامُه في حال المجموعات الدينيّة أو الثقافيّة أو السكّانيّة **الأخرى** على وجه الأرض...

وبدلاً من البحث [العلميّ]، فإنّنا غالبًا ما لا نجد إلاّ صحافيين يُدْلون بأحكامٍ متهوِّرة، تلتقطها وسائلُ الإعلام فورًا وتزيد في إثارتها. وفوق عملهم يَلُوح مفهومٌ زَلِقٌ [متقلقل]، يحيلون عليه بشكلٍ ثابت؛ إنّه مفهومُ «الأصوليّة،» وهي كلمةٌ باتت ترتبط بشكلٍ شبهِ آليٍّ بالإسلام، مع أنّها ذاتُ علاقةٍ مزدهرةٍ (يتمّ تجاهُلها عادةً) بالمسيحيّة واليهوديّة والهندوسيّة. إنّ الإحالات المصنوعة بشكلٍ قَصْديّ بين الإسلام والأصوليّة تَضْمن أن يَنْظر القارئُ العاديُّ إلى الإسلام والأصوليّة كأنّهما الشيءُ نفسُه أساسًا. وحتى لو أخذنا في الاعتبار النزوعَ إلى اختزال الإسلام إلى حفنةٍ من الأحكام والتنميطات والتعميمات عن هذا الدين ومؤسِّسه وجميع الشعوب التي تَعْتنقه، فإنّ تعزيزَ كلّ الحقائق السلبيّة المرتبطةَ بالإسلام ـ [من قبيل] عنفيّته وبدائيّته وتقهقريّته وخصائصه التهديديّة ـ يتأبّد ويدوم. وقد حدث كلُّ ذلك من دون أيّ جهدٍ جدّيّ لتعريف مصطلح «الأصوليّة،» أو لإعطاء معنًى محدّد لـ «الراديكاليّة» أو «التطرُّف،» أو لإضفاء سياق على هذه الظواهر (كالقول مثلاً إنّ ٥٪ أو ١٠٪ أو ٥٠٪ من مجموع المسلمين أصوليّون).

...

تأمّلوا الحالةَ النموذجيّةَ المتمثّلةَ في عضو مجلس الأمن القوميّ [الأميركيّ] السابق بيتر رودمان، حين كتب في ١٩٩٢/٥/١١ في **ناشونال ريڤيو** يقول في فرضيّةٍ أولى متواضعة: «يجد الغربُ نفسَه الآن خاضعًا للتحدّي من الخارج، على يد قوّةٍ ناشطةٍ تقهقريّةٍ مدفوعةٍ بالكراهية ضدّ كلّ الفكر السياسيّ الغربيّ، مُحيلةً على مظالمَ دهريّةٍ ضدّ العالم المسيحيّ (Christendom).» لاحظوا غيابَ المحدِّدات الضابطة، والاستخدامَ المتفلّتَ من كلّ عقالٍ لتعميماتٍ كاسحةٍ يستحيلُ إثباتُها من قبيل «مُحيلةً على مظالمَ دهريّةٍ ضدّ العالم المسيحيّ،» والتعبير الأخير ذو وقعٍ أضخمَ وأبعدَ أثرًا من تعبير المسيحيّة (Christianity) غيرِ المزخرف ولكنّه أصدقُ إلى حدٍّ ما. ويواصل رودمان الغوصَ بعيدًا فيقول: «إنّ جزءًا كبيرًا من العالم الإسلاميّ تمزّقه الانقساماتُ الاجتماعيّةُ، وتُحْبطه عُقدةُ النقص المادّيّ إزاء الغرب، ويُحسّ بالمرارة حيال التأثيرات الثقافيّة الغربيّة، وتَدْفعه الامتعاضاتُ (ما أسماه برنارد لويس سياساتِ الغضب). إنّ نزعةَ عدائه الخبيثةَ للغرب لا تبدو مجرَّد تكتيك.» والحقّ أنّ دورَ برنارد لويس في هذا النوع من الخطاب أمرٌ سأُفْرِدُ له اهتمامًا خاصًا عمّا قريب. على أنّ رودمان لا يقدِّم أيّ برهانٍ على مزاعمه عن «عقدة النقص» الإسلاميّة والامتعاضات الإسلاميّة والغضب الإسلاميّ، بل يكفيه أن يُدلي بادّعاءاته لأنّ «الإسلام» كما تتمّ تغطيتُه و(إساءةُ) تمثيلِه في الفكر الاستشراقيّ، وفي التنميطات الإعلاميّة، يقف مُتَّهمًا ومُدانًا من دون الحاجة إلى حججٍ مدعِّمةٍ أو محدِّداتٍ معدِّلةٍ [ملطِّفة] من النوع الذي يَسْتخدمه رودمان بشكلٍ روتينيّ عند نقاش العالم «الغربيّ» أو «العالم المسيحيّ» نفسِه. ونودّ أن نسأل: هل كلُّ واحدٍ من البليون مسلم في العالم يَشعر بالغضب وعقدةِ النقص؟ هل كلُّ مواطنٍ في أندونيسيا أو باكستان أو مصر يمتعض من التأثيرات «الغربيّة»؟ كيف يبدأ المرءُ في الحصول على إجاباتٍ عن أسئلةٍ أساسيّةٍ كهذه؟ أمْ أنّ «الإسلام» لا يُمْكن استكشافُه كما نفعل إزاء أيّ دينٍ أو ثقافةٍ أخرى لأنّه ـ خلافًا لكلّ الأديان والثقافات الأخرى ـ دينٌ يقفُ خارج التجربة الإنسانيّة «العاديّة،» دينٌ يُمْكن الحديثُ عنه وكأنّه ـ وبكلّ ما فيه ـ يُشْبه إنسانًا مُصابًا بأمراضٍ نفسيّة؟

أو تأمّلوا دانيال پايْپس، وهو معادٍ للإسلام عداءً جيّاشًا، وسِمتُهُ الرئيسةُ أنّه، كمستشرق، «يَعْرف» الإسلامَ «على حقيقتِه» البغيضةِ المروِّعة. پايْپس يحرِّر نفسَه من بعض التأمّلات في قطعةٍ «فكريّةٍ» نُشرتْ خريفَ العام ١٩٩٥ في عدد **ذا ناشونال إنترِست** تحت عنوانٍ متواضع هو: «ليس ثمّة معتدلون: التعاملُ مع الإسلام الأصوليّ.» وهو لا يُبرِّئ في أيّ موضعٍ من مقاله الإسلامَ الراديكاليَّ ـ الذي لا يكلِّف نفسَه تعريفَه، وإنّما يدعونا عنوانُه إلى أن نفترضَ أنّه والإسلامَ اللاراديكاليَّ سواءٌ ـ من طبيعته الحقيقيّة التي يُخْبرنا منذ البداية أنّها «أقربُ روحًا إلى حركاتٍ أخرى مشابهةٍ (الشيوعيّة، الفاشيّة) منه إلى الدين التقليديّ.» وبُعَيْد ذلك يطوِّر تلك المقارنةَ خطوةً إضافيّةً فيقول: «في حين أنّ الإسلام الأصوليّ يختلف في تفاصيله عن الإيديولوجيّات الطوباويّة الأخرى، فإنّه يُشْبهها شبهًا وثيقًا، مدًى وطموحًا. إنّه، شأنَ الشيوعيّة والفاشيّة، يقدِّم إيديولوجيا طليعيّةً؛ برنامجًا كاملاً لتحسين الإنسان وخلقِ مجتمعٍ جديد؛ وسيطرةً تامّةً على ذلك المجتمع؛ وكوادرَ مستعدّين، بل توّاقين إلى إراقة الدماء.» ويَسْخر پايْپس من الخبراء الذين يقولون إنّ الإسلامَ السياسيَّ قد استنفد غرضَه؛ لا، بل هو يقدِّم حجّةً معارضةً تقول بأنّ ذروتَه تخيِّم فوقنا الآن. إنّ إسلامَ پايْپس «الأصوليَّ»، العنيفَ، غيرَ العقلانيّ، الذي لا

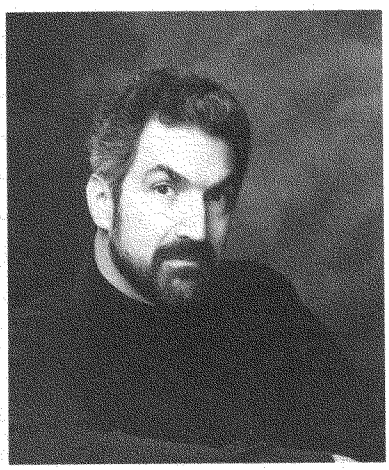

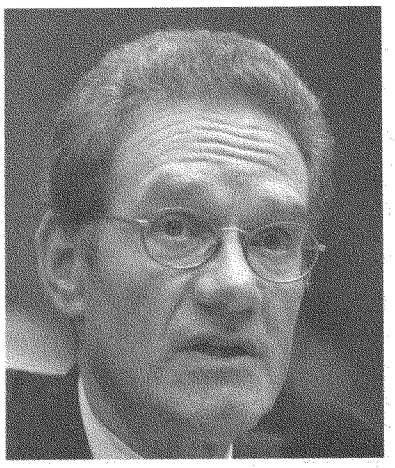

الأصولية، بحسب دانيال پايپس وبيتر رودمان، تساوي الإسلام، وتساوي كل ما ينبغي أن نحاربه الآن.

تُمْكن تهدئتُه، ولا مهادنتُه على الإطلاق، يهدِّد العالمَ، ولا سيّما «نحن،» مع أنّ «الإرهاب»، النابعَ من الشرق الأوسط، بحسب أرقام وزارة الخارجيّة الأميركيّة، يحتلّ المرتبةَ **السادسةَ** من حيث حدوثُه ووتيرتُه.

باختصار، الأصوليّة [بحسب پايْپس ورودمان] تساوي الإسلامَ، وتساوي كلَّ ما ينبغي أن نحاربَه الآن، كما سبق أن فعلنا مع الشيوعيّة أثناء الحرب الباردة. بل الحقّ، على ما يقول پايْپس، أنّ المعركة مع الإسلام أفدحُ وأعمقُ وأخطر. على أنّ پايْپس ورودمان لا يكتبان وكأنّهما «من الخارج» أو من الحواشي المجنونة، وإنّما ينتمي عملهُما بعمقٍ إلى التيّار السائد، ويُقْصد به ـ وفي ذلك شيء من التوقّعات الواقعيّة ـ أن يسترعيَ اهتمامًا جدّيًا من صُنّاع القرار. أمّا عن مدى انتشار أفكارهما، فذلك ما يُمْكن أن نلتقطه من مادّةٍ في **Us News and World Report** في ١٩٨٧/٧/٦: «إنّ الأصوليّة، من حيث كونها غير اعتذاريّة، وغير مَرِنة [لا تنحني]، تركّب موجةً صاعدةً على امتداد جزءٍ كبيرٍ من العالم الإسلاميّ. وهي تفاجئ الغربَ المختلَّ التوازن، وخاصّةً حين تتّحد الحماسةُ الدينيّةُ الإسلاميّةُ والأغراضُ السياسيّةُ لتخلقَ معًا نتائجَ عنيفةً. ليس ثمّة إلى الآن برهانٌ كافٍ على أنّ غالبيّة الأصوليّين يَرْفعون لواءَ الطاعة لأهداف الخميني الثوريّة المعلنة، لكنّ رسالته تنتشر كما يبدو.» وبعيْد زمنٍ قليل، في ١٩٨٧/١٠/١٦، في المجلّة نفسها، نقرأ: «إنّ عقدة الشهيد ـ التي هي جزءٌ لا يتجزّأ من نسخة إيران عن الإسلام، أي النسخة الشيعيّة ـ تَظْهر الآن في أوساط شباب الغالبيّة السُّنّيّة.» وهكذا فإنّ معاييرَ الحسّ العقلانيّ تتوقّفُ حين يتواصلُ النقاشُ عن الإسلام: فلا أحدَ يكلّف نفسَه السؤالَ، مثلاً، عن مدى إمكانيّة البرهنة على أنّ [عقيدة] الشهادة تنتشر في أوساط شباب السُّنّة، وعددهُم عدّةُ مئاتٍ من الملايين، من المغرب إلى أوزبكستان؛ وإذا صحّ ذلك [الانتشارُ]، فأيُّ نوعٍ من البرهان يُرجَّح أن يكون في المقام الأوّل؟

...

هكذا أصبح الإسلامُ في قلب النقاش داخل عددٍ كبيرٍ من دوائر صناعة القرار، والإعلام كذلك. ومعظمُ هذا النقاش يتجاهل حقيقةَ أنّ المجموعاتِ الإسلاميّةَ الرئيسةَ اليوم حلفاءُ الولايات المتّحدة وزبائنُها أو تدور في فلكها ـ كالسعوديّة وأندونيسيا وماليزيا وباكستان ومصر والمغرب والأردن وتركيا، حيث انبثق الإسلاميّون الحركيّون إلى حدٍّ ما لأنّ الأنظمةَ هناك مدعومةٌ جهارًا نهارًا من طرف الولايات المتّحدة؛ فهذه الحكوماتُ الأقلّويّةُ المعزولةُ غالبًا، والمتغرِّبةُ عن معظم جماهيرها، أُجبرتْ على قبول الوصاية والتأثير الأميركيّيْن بسبب أجندة الولايات المتّحدة لا بسبب أجندة إسلاميّة...

ثمّة تيّارٌ ثابتٌ من التوصيفات المماثلة يتضخّم بفضل إسهاماتِ مجلّاتٍ وكتبٍ موالية لإسرائيل، أملاً في أن ترى أعدادٌ متزايدةٌ من الأميركيّين والأوروبيّين إسرائيلَ ضحيّةً للعنف الإسلاميّ. وقد لجأتْ حكوماتٌ إسرائيليّة، الواحدةُ تلو الأخرى، إلى ترويج هذه الصورة عن الذات، في سياق حروب المعلومات المتواصلة منذ العام ١٩٤٨ حول قضيّة الشرق الأوسط برمّتها. وعلى الرّغم من أنّني عالجتُ هذا في مكانٍ آخر، فإنّه من المهمّ أن أصرّ على أنّ مثل هذه المزاعم عن الإسلام، وعن العرب في معظم الأوقات، مصمَّمةٌ من أجل طمس ما فعلتْه إسرائيلُ والولاياتُ المتّحدة، عدوّتا «الإسلام» الرئيسيّتان. فقد تولّتا، فيما بينهما، قصفَ عدّة بلدانٍ إسلاميّةٍ وغزوَها (مصر، الأردن، سوريا، ليبيا، الصومال، العراق)، واحتلّتْ إسرائيلُ أراضيَ عربيّةً ـ إسلاميّة في أربعة بلدان، ويُنْظَر إلى الولايات المتّحدة من طرف الأمم المتّحدة بوصفها داعمةً جَهارًا نَهارًا للاحتلال العسكريّ لتلك الأراضي. ولهذا، فإنّ إسرائيل تُعتبر في عين الغالبيّة الكاسحة من المسلمين والعرب قوّةً نوويّةً إقليميّةً مغرورة، تحتقر جيرانَها، ولا تكترثُ لعددِ هجماتها الصاروخيّة ولوتيرتها، ولأعمال القتل التي نفّذتْها (وهي تتجاوز بكثيرٍ عددَ الإسرائيليّين الذين قتلهم المسلمون)،

وللتهجير والحرمان، ولا سيّما في ما يخصّ الفلسطينيّين. وفي تحدٍّ للقانون الدوليّ ولعشرات القرارات التي أصدرتها الأممُ المتّحدة، ضمّت إسرائيلُ القدسَ الشرقيّةَ ومرتفعاتِ الجولان، واحتلّت جنوبَ لبنان منذ العام ١٩٨٢، ومارستْ سياسةً تُعامِلُ الفلسطينيّين (وتوصّفهم) وكأنّهم أدنى من البشر، بل عِرقٌ على حِدة، وفرَضَتْ قوّتَها على سياسات الولايات المتّحدة حيال الشرق الأوسط، بحيث تطغى مصالحُ أربعة ملايين إسرائيليّ طغيانًا تامًا على مصالح مئتيْ مليون مسلم عربيّ. إنّ ذلك كلّه ـ لا صيغةَ برنارد لويس التي تقول إنّ المسلمين ساخطون من «الحداثة» الغربيّة ـ هو الذي خَلَقَ حسًا يُمْكن فهمُه من التذمّر العربيّ ـ الإسلاميّ إزاء القوى التي تَزْعم، شأنَ إسرائيل والولايات المتّحدة، أنّها ديموقراطيّاتٌ ليبراليّةٌ ولكنّها تتصرّف حيال الشعوب الأضعف وفقًا لمعايير متناقضةٍ جدًا من الوحشيّة والمصلحة الذاتيّة. وحين قادت الولاياتُ المتّحدةُ تحالفًا من الدول ضدّ العراق عام ١٩٩١، تحدّثتْ عن الحاجة إلى قَلْب [ردّ] العدوان والاحتلال. ولكنْ، لو لم يكن العراقُ دولةً مسلمةً احتلّت عسكريًا دولةً مسلمةً أخرى [الكويت] في منطقةٍ تحتوي احتياطيًا نفطيًا هائلاً يُعتبر من الممتلكات الخاصّة للولايات المتّحدة، لما حَدَث الغزوُ... تمامًا مثلما أنّ غزوَ إسرائيل واحتلالَها للضفّة الغربيّة ومرتفعاتِ الجولان، وضَمَّها للقدس الشرقيّة، وبناءَها للمستوطنات، لم تكن، في رأي الولايات المتّحدة، لتتطلّب تدخّلها.

إنّني لا أقول إنّ المسلمين لم يهاجموا ويَجْرحوا إسرائيليّين وغربيّين باسم الإسلام، لكنّني أقول إنّ كثيرًا ممّا يقرأه المرءُ ويراه في الإعلام [الغربيّ] عن الإسلام يصوّر العدوانَ القادمَ من الإسلام وكأنّه يعود إلى كون «الإسلام» على هذا النحو. هكذا تُمْحى الظروفُ المحلّيّةُ والملموسةُ. وبكلماتٍ أخرى، فإنّ تغطيةَ الإسلام نشاطٌ أُحاديُّ الجانب، يَطْمس ما نفعله «نحن،» ويسلّطُ الضوءَ بدلاً من ذلك على ماهيّةِ المسلمين والعرب جرّاء طبيعتهم المَعيبة.

في ما يأتي لن أقتبسَ من كتّابٍ هامشيّين، أو مجانين بشكلٍ واضح، أو غير مهمّين، كتبوا عن الشرق الأوسط والإسلام، بل سأقتبس من الصحافة الشهيرة والسائدة كـ **نيوريبابليك وذا أتلانتيك**: الأولى يَمْلكها مارتِن بيريتز، والثانية يَمْلكها مورتون زوكرمان، وكلاهما مناصرٌ كبيرٌ لإسرائيل، ومن ثم منحازٌ ضدّ الإسلام. على أنّ بيريتز حالةٌ خاصّة: ذلك أنّ أحدًا لم يثابرْ تلك المدّة الطويلةَ (عقديْن على الأقلّ) على التعبير عن مثل ذلك الكره والاحتقار العرقيّيْن لحضارةٍ وشعبٍ محدّدين، كما فعل هو إزاء الإسلام والعرب. وجزءٌ من حقده السامّ نابعٌ بالتأكيد من اندفاعه الذي لا هوادةَ فيه للمنافحة عن إسرائيل أيًا كان الثمن. غير أنّ ثمّة كثيرًا ممّا يقوله طوال الأعوام يتخطّى بكثيرٍ الدفاعَ العقلانيّ؛ وأعمدتُه الصحفيّة المليئة بالتشهير الصُّراح، واللاعقلانيّ، والمبتذل، لم يتمّ تخطّيها في أيّ مكان آخر.

...

إنّ تشهيرات بيريتز المذهلة تتدحرج من أجل طمس الحقيقة التاريخيّة طمسًا كلّيًا، وهي أنّ يهودًا، معظمُهم أوروبيّون، قد جاؤوا فعلاً إلى فلسطين، التي كان يَسْكنها ويستقرّ فيها شعبٌ آخر، فدَمَّروا مجتمعَهم، وسلبوهم ممتلكاتِهم، وهجّروا ثلثيْهم. وإضافةً إلى ذلك تحتلّ إسرائيلُ عسكريًا أراضيَ فلسطينيّة (فضلاً عن أراضٍ سوريّةٍ ولبنانيّة) منذ عدّة عقود، وضمّت القدس الشرقيّة، وهو عملٌ لم يَعترفْ به أيُّ بلدٍ على وجه الأرض، ومَنحتْ نفسَها حقّ شنّ حربٍ «استباقيّةٍ» ضدّ بلدان عربيّة متعدّدة. غير أنّ بيريتز، العاجزَ عن التعامل مع هذه الوقائع إلاّ بوصفها حقًا بفضل تفوّق إسرائيل، يُسْبِـــغ على المسلمين والعرب نظريّةَ العنف المجّانيّ والدونيّة الثقافيّة: ففي العدد الصادر في ١٩٩٦/٨/١٣ من مجلّته، يبرّر أوّلاً سياسةَ العنف الصفيقة التي ينتهجها رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ بنيامين نتنياهو، مضيفًا أنّ على إسرائيل، في نهاية المطاف، أن تتعامل مع الدول العربيّة حيث «لا نزوعَ ثقافيًا إلى النهوض العلميّ والصناعيّ. فياللأسف، هذه مجتمعاتٌ لا تستطيع أن تَصنعَ قرميدةً ناهيك برقاقةٍ إلكترونيّة صغيرة [microchip]». ويتابع بيريتز فكرته (التي تشبّه بالطبع آراءه عن الأفارقة الأميركيّين في أنّهم محكومون بالدونيّة) ليَخْلص إلى الآتي: «هذه الفجوة المتّسعة ستُنتج كراهيةً عميقةً، وربّما عسيرةَ الضبط، ضدّ إسرائيل. ومع أنّها قد لا تؤدّي إلى حربٍ بالمعنى التقليديّ، فإنّها قد تُنتج على الأغلب أكثرَ ما خَبِرَتْه إسرائيلُ طوال الأعوام الأخيرة: إرهابًا وشغبًا متواصلاً.»

إنّ عادةَ بيريتز في استخدام تعميماتٍ لاعقلانيّةٍ شاسعةٍ للهجوم على الإسلام والعرب، بسبب خطاياهم ضدّ بلده المفضّل إسرائيل، تجد نظيرًا لها أقلّ حدّةً في الكتب والمقالات وقصص التلفزيون والأفلام الوصفيّة أو المسلّية. [خذ] ميلتون ڤيورست، وهو كاتبُ مقالاتٍ عديدةٍ عن الشرق الأوسط لمجلّة **نيويوركر**، جَمَعَ معظَمها في كتابه **قصور الرمل: العرب بحثًا عن العالم الحديث** (كنوف، ١٩٩٤). ومع أنّ ڤيورست ملاحِظٌ متوقّدٌ، فإنّه معوَّقٌ بسبب ترسانةٍ كاملةٍ من الافتراضات المسبّقة غير المتّحَنة عن الإسلام، يُطْلقها من غير وعيٍ بالذات أو تشكيك. ولا تكاد مراجعةٌ واحدةٌ لهذا الكتاب تحتوي نقدًا لهذه الافتراضات المريبة. أحدُ الاستثناءات هو ما كتبه محمّد علي خالدي في **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة** (النسخة الإنكليزيّة في شتاء ١٩٩٦)، حين جمع بعضًا من تلك الافتراضات إلى جانب أثرها الكاسح. فهو يقتطف من ڤيورست ما يأتي: «تُظهر المدينةُ الإسلاميّةُ التقليديّةُ اهتمامًا ضئيلاً بالجماليّات الخارجيّة؛ بل إنّ العرب، حتى الآن، يبدو أنّهم لا يَلْحظون شوارعهم، ويغطّونها بالقُمامة. بعضُ الملاحظين يَشْرح هذه اللامبالاةَ بالفضاء العامّ بأنّها ثمرةٌ لتركيز [مَرَضيّ] من طرف الثقافة الإسلاميّة على العُزْلة، وعلى ممارسة الحياة الاجتماعيّة داخل البيت فقط.» وهناك أكثرُ من ذلك بعدُ: «فالإسلام،» بحسب ڤيورست، «نجح، حيث فشلت المسيحيّةُ،

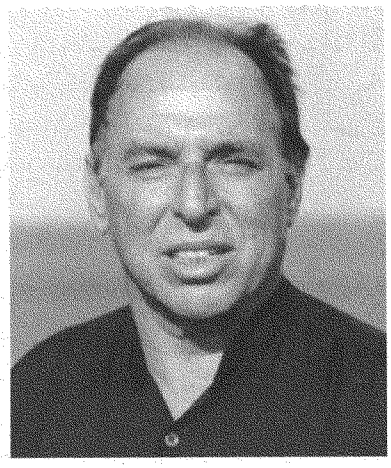

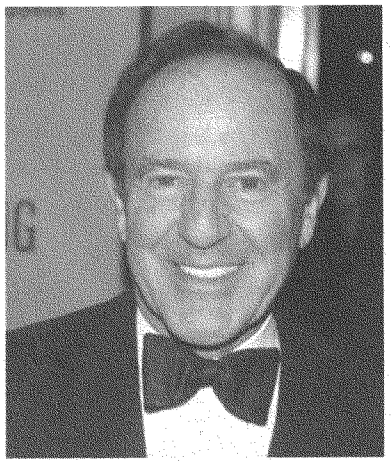

مارتن بيريتز ومورتون زوكرمان: كلاهما مناصر لإسرائيل، ومن ثمّ منحاز ضدّ الإسلام.

في تقييد قوّة المرء على التفكير... العربُ غالبًا ما أظهروا ميلاً باطنيًا إلى المحافَظَة، إنْ لم يكن إلى القَدَريّة، داخل ثقافتهم. إنّهم لا يرتاحون إلى التحدّي الثقافي.» محمّد علي خالدي على حقّ في تذكير فيورست بأنّ المسلمين، في خاتمة المطاف، كيّفوا الفلسفةَ اليونانيّةَ لكي يَستخدمها الأوروبيّون لاحقًا، وأنّهم كانوا روّادًا في المنطق والفلك، وأنّهم رسّخوا الطبّ علمًا، واخترعوا علمَ الجبر. غير أنّ فيورست لا يعوّقه شيءٌ من هذا (أو لعلّه لا يَعْلمه أصلاً). فهو يتحدّث بثقةٍ عن «عداءٍ [إسلاميّ] أصيلٍ للتفكير الخلاّق، تنامى تدريجيًا ليصبحَ سمةً للإسلام.» ويزعم أنّ «المسلمين، عربًا وتركًا معًا، يُقرّون، عن طيبِ خاطرٍ، وبناءً على عددٍ من الخصائص الثقافيّة، بأنّ حضارتَهم لا ترقى إلى حضارة الغرب» لأنّ «الصرّامةَ [أو الدقّة] الثقافيّة، وهي هديّةُ الغرب الحقيقيّة إلى العالم الحديث، لم تلامِسِ الحضارةَ العربيّةَ إلاّ بشقّ النفس.»

...

أحدُ التقييمات النقديّة القليلة الأخيرة للضرر الناجم عن الكليشيهات الموجودةِ عن الإسلام، في وسائل الإعلام ومجلاّت صنع القرار السياسيّ وفي الأكاديميا، هو ما كتبه زاكاري كارابل (**ورْلد پوليسي جورنال**، صيف ١٩٩٥). ينطلق كارابل من فرضيّةٍ تقول بوجود اهتمام مُبالغ فيه بالإسلام «الأصوليّ» منذ نهاية الحرب الباردة. فوسائلُ الإعلام العامّة، كما يقول محقًا، مليئةٌ بالصور السلبيّة عن الإسلام: «اسألوا طلاّبَ الكلّيّات الأميركيّة، سواءٌ في جامعات النخبة أو في أماكن أخرى، عن رأيهم حين يَسْمعون ذِكْر كلمة 'مُسلم.' الجواب سيكون هو ذاته بشكلٍ محتوم: إرهابيّون مسلّحون، مُلْتحون، متعصّبون، مصمِّمون على تحطيم العدوّ الكبير، الولايات المتّحدة.» ويلاحظ كارابل، مثلاً، أنّ برنامج ٢٠/٢٠ على قناة ABC، وهو برنامجٌ يحظى بالمكانة والاعتبار الشعبيّ، «بثّ عدّة مقاطع تحكي عن الإسلام بوصفه دينًا حربيًا يعبِّئ المقاتلين في سبيل الله؛ وبرنامج فرانتلاين رعى تحقيقًا عن مِجسّات الإرهابيّين الإسلاميّين حول العالم.» وكان بإمكانه أن يَذْكر أيضًا فيلم إمرسون على محطّة PBS، وعنوانُه **الجهاد في أميركا**، الذي صُمِّم ورُوِّج له بطريقةٍ كلبيّةٍ [سينيكيّة] من أجل استغلال هذا الخوف وحده؛ أو كان بإمكانه أن يَذْكر «موضة» الكتب ذات العناوين الاستفزازيّة مثل **الغضب المقدّس** أو **بسم الله**، التي تَجْعل الربطَ بين الإسلام واللاعقلانيّة الخطرة أشدّ وأكثرَ حتميّةً. ويواصل كارابل: «الأمرُ نفسُه يمكن أن يُقال عن الإعلام المطبوع. والقصص التي تتحدّث عن الشرق الأوسط غالبًا ما ترافقها صورةٌ عن مسجدٍ ما، أو عن جموعٍ كبيرةٍ تصلّي.»

كلّ هذا، على ما قلتُ آنفًا، يؤشّر على تدهورٍ خطيرٍ في الوضع الذي وصفتُه في الطبعة الأصليّة من **تغطية الإسلام**، المنشورة قبل عقدٍ ونصفٍ من الآن. فثمّة اليوم، مثلاً، موجةٌ جديدةٌ من الأفلام المصوّرة الضخمة (أحدُها، وعنوانه **أكاذيبُ حقيقيّةٌ**، على ما يذكّرنا كارابل، «كان أشرارُه إرهابيّين عربًا من النوع الكلاسيكيّ، وقد اكتملوا بعيونٍ وامضةٍ ورغبةٍ متّقدةٍ في قتل الأميركيّين») هدفُها الأساسُ هو شيْطنةُ المسلمين ونزعُ الإنسانيّة عنهم، أوّلاً، من أجل أن تُظْهر، ثانيًا، بطلاً غربيًا، أميركيًا في العادة، جريئًا، وهو يُجْهِزُ عليهم. فيلم **دلتافورس** (١٩٨٥) هو الذي بدأ تلك الموجة، ولكنّها تتابعتْ مع قصص **إنديانا جونز** [البطوليّة]، ومع سلاسل تلفزيونيّة لا تُحصى يُصَوِّرُ فيها المسلمون، بشكلٍ منتظم، أشرارًا وعنيفين، وقبل كلّ شيء جديرين بالقتل الواضح. أحدُّ التبدّلات التي طرأتْ على العادة القديمة الماثلة في «أكْزَكة» الشرق(*) في أفلام هوليوود هو أنّ الغرام والسِّحْر أُزيلا اليومَ تمامًا، كما أُزيلا أيضًا في أفلام النينجا التي تنصّب أميركيًا أبيضَ (بل أسودَ أيضًا) في مواجهة عددٍ لا ينتهي من الشرقيّين المقنّعين بالأسْود، وجميعُ هؤلاء يلقَوْن عقابَهم «العادل.»

* - إزاء exoticising، أيْ معاملة الشرق بشكلٍ إكزوتيكيّ، مثيرٍ للمشاعر بسبب غرابته. (المترجم)

أحدُ أسوإِ المُهينين في الحرب الثقافيّة ضدّ الإسلام هو المستشرق البريطانيّ البارزُ المقيمُ الآن في الولايات المتّحدة والأستاذُ المتقاعدُ في جامعة پرنستون، برنارد لويس، الذي تَظْهر مقالاتُه بشكلٍ دوريّ في **نيويورك ريڤيو أوف بوكس وكومنتري وأتلانتيك مانثلي وفورين أفيرز**. وطوال عقود عدّة، تسرّبتْ آراؤه، التي ظلّت بلا تغيير، بل أصبحتْ مع الوقت أكثرَ حدّةً واختزالاً، إلى خطاب المقالاتِ والكتبِ «الفكريّة» التي يكتبها صحافيّون طموحون وعددٌ كبيرٌ من علماء السياسة. أمّا سببُ اكتسابِ آراءِ لويس، التقليديّة جدًا ـ من حيث انبثاقُها من مستشرقي القرن التاسع عشر في المدرسة البريطانيّة والفرنسيّة الذين رأوْا في الإسلام خطرًا على المسيحيّة والقيم الليبراليّة ـ مثلَ هذا الانتشار الكبير، فيَسْهُل شرحُه. فتشديداتُ لويس في عمله هي جميعها من أجل تصوير الإسلام بأكمله وكأنّه، أساسًا، خارجَ العالم المعروف والمألوف والمقبول الذي نحيا «نحن» [الغربيّون] فيه، وهي من أجل القول إنّ الإسلام المعاصر وَرِثَ العداءَ الأوروبيَّ للساميّةِ لاستخدامه في حربٍ مزعومةٍ ضدّ الحداثة. وكما سبق أن نوّهتُ بخصوص لويس في كتابي **الاستشراق**، فإنّ أساليبه هي: الملاحظةُ المحتالة، والاستخدامُ المخادعُ لعلم أصول الكلمات (الإيتمولوجيا) من أجل تسجيل ملاحظات حضاريّةٍ ضخمةٍ عن مجموعةٍ كاملةٍ من الشعوب، فضلاً عمّا لا يقلّ مدعاةً للشجب، ألا وهو عجزُه الكاملُ عن القبول بأنّ للمسلمين الحقَّ في ممارساتهم الثقافيّة والسياسيّة والتاريخيّةِ **الخاصّةِ بهم**، متحرّرين من سعي لويس المحسوبِ إلى أن يُظهر أنّهم لا يُمْكن أن يكونوا أخيارًا لأنّهم ليسوا «غربيّين» (وهو مفهومٌ يَقْبض عليه بيدٍ بالغةِ الاهتزاز).

...

ولا أَظْهَرَ على ذلك من مقالته عن «عودة الإسلام،» وهي قطعةٌ ظهرتْ أوّلاً في المجلّة اليهوديّة اليمينيّة المتطرّفة **كومنتري**، وضُمّنت بعد ذلك في كتابه، **الإسلام والغرب**. فبغضّ النظر عن الاحتفاليّات الأكاديميّة المدّعية التي يُظهرها، فإنّه يَستخدم عمليًا «علمَ كلام» زائفًا لكي يَزْعم أنّ معظمَ الظواهر السياسيّة الأساسيّة في العالم العربيّ المعاصر، والتي لا يُوافق عليها هو وجمهورُه، تعود إلى القرن السابع للإسلام. وعلى نحو ما يلاحظ الباحثُ المدقّقُ أسعد أبو خليل، فإنّ لويس «وإنْ كان يَمْلك الحقّ في أن يؤْمن بفارق أساسيّ ـ وجينيّ كما يبدو ـ بين العقل الغربيّ الحديث، والعقل المسلم الذي لا يتغيّر على مدى العصور بحسب لويس (الأمرُ الذي يُتيح له أن يقتبسَ من فقهاء مسلمين في العصر الوسيط ليَشرحَ تطوّراتٍ راهنةً اليوم)، فإنّ تحليله للأحداث الحاليّة هو ـ في أحسن الأحوال ـ غيرُ مستندٍ إلى المعرفة» (**مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، بالإنكليزيّة، ١٩٩٩). وتلك هي النقطةُ تمامًا، لأنّ إجراءاتِ لويس الاستشراقيّة تُستعرضُ أمام القارئ بهدف فهم ما يُحَضِّره «العقلُ المسلمُ» اليوم. وهذا، بالطبع، لا يَفْسح المجالَ أمام التغيير التاريخيّ، ولا الفاعليّةِ البشريّة، ولا أمام إمكانيّةِ ألاّ يكونَ كلُّ المسلمين يفكّرون بالطريقة نفسِها منذ القرن السابع؛ وهو أيضًا يُبعده عن مناقشة الحاضر بشكلٍ ملموس. غير أنّ قصدَ لويس هو أن يُقْنع القرّاء بأنّ المسلمين كانوا، وما يزالون، على الدوام عنيدين [متشنّجين] حيال الإسلام لا غير ـ وذلك حشوٌ يناقض، ببساطةٍ، الفهمَ البشريّ.

ويَبْلغ لويس أسوأَ درجاته في مقاله «جذورُ الغضب المسلم» الذي ظهر في عدد أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠ من **ذا أتلانتيك**. وأيًا كان مَنْ صَمَّم غلافَ ذلك العدد فقد فَهِمَ مقصدَ لويس تمامًا: رأسٌ محمْلِقٌ، معمَّمٌ، إسلاميٌّ بشكلٍ جليّ، يحدِّق إلى القارئ، بؤْبُؤاه يَعْكسان أعلامًا أميركيّةً، وسلوكُه يُعلن الكراهيةَ والغضبَ. فأنْ تسمّي ما فَعَلَه لويس في هذه المقالة البالغة الأثر بحثًا أكاديميًا أو تأويلاً لَهُوَ أن تَسْخَرَ من معنى الأمرين معًا. إنّ «جذورَ الغضب المسلم» مُناظرةٌ فجّةٌ خاليةٌ من الحقائق التاريخيّة، أو المحاججةِ العقلانيّة، أو الحكمة البشريّة. وإنّها تَسْعى إلى توصيفِ المسلمين وكأنّهم شخصٌ جمعيٌّ واحدٌ إلى حدّ مُرعِب، مغتاظٌ من عالمٍ خارجيٍّ أقضَّ هدوءَه (الذي يكاد يكون بدائيًا) وحُكْمَه الذي لا يُتَحَدّى...

فيما بعد يناقض لويس نفسَه بالقول إنّ المسلمين رَحّبوا في السابق بالغرب، فاستجابوه بـ «الإعجاب والمحاكاة.» غير أنّ ذلك، على ما يَزْعم، ينحلّ إلى كراهيةٍ وغيظٍ مَحْضين، وذلك حين «تُحرِّكُ المشاعرُ العميقةُ،» ولا شيء يُلام كما يبدو على هذه الانفجارات غير الملائمة سوى تلك المشاعرِ الداخليّة. وبحلول خاتمة المقال يقدّم لويس زعمًا مروِّعًا، وهو أنّ ما نناقشهُ «نحن» إنّما هو ظاهرةٌ من الغضب الأصفى والأكثر مجّانيّة ضدّ الحداثة نفسِها:

«ينبغي أن يكون قد أصبح واضحًا الآن أنّنا نواجه مزاجًا وحركةً يتجاوزان بكثيرٍ مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتّبعُها. وهذا ليس أقلّ من أن يكون صِدامَ حضارات، ردَّ فعلٍ قد يكون لاعقلانيًا، ولكنّه بالتأكيد تاريخيّ، [يمارسه] خصمٌ قديمٌ ضدّ تراثنا (اليهو ـ مسيحيّ)، وضدّ حاضرنا العلمانيّ، وضدّ توسُّعِهما على امتداد العالم. إنّه من الأهمّيّة الحاسمة بمكانٍ ألاّ نُستَفَزَّ لنمارسَ ردَّ فعلٍ تاريخيًا هو الآخر، وبشكلٍ متساوٍ ولكنّه لاعقلانيٌّ بالمِثْل أيضًا، ضدّ ذلك الخصْم.»

بكلماتٍ أخرى، فإنّ المسلمين يمارسون ردَّ الفعل اليوم فقط لأنّه مقدَّرٌ لهم، تاريخيًا وربّما جينيًا، أن يَفْعلوا ذلك؛ وما يَردّون عليه ليس سياساتٍ أو أفعالاً أو أيّ أمرٍ دنيويٍّ مماثلٍ كهذا. إنّ ما يحاربُ [المسلمون] دفاعًا عنه إنّما هو كراهيةٌ لاعقلانيّةٌ للحاضر العلمانيّ، الذي يُعلن لويس بتشامخٍ أنّه «لنا» [الغرب] ولنا وحدَنا.

إنّ غرورَ هذه المزاعم يأخذُ بالأنفاس. فالأمر لا يقتصر على أنّ المسلمين و«نحن» مُغلَقُون بعضنا إزاء بعض، على الرّغم من قرونٍ (بالمعنى الحَرْفي) من الاستعارات والعُبُورات [المتبادلة]

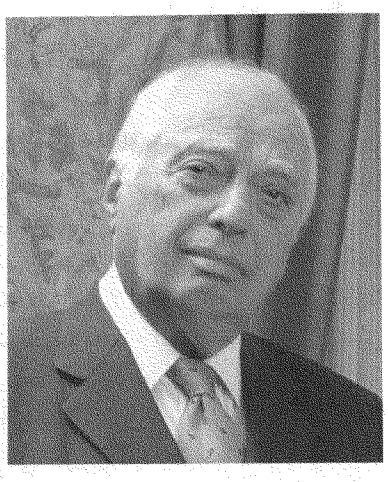

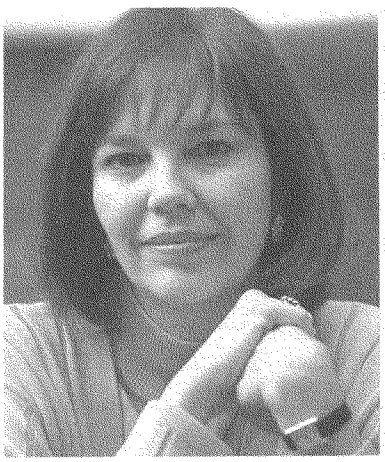

برنارد لويس وجوديث ميلر: سلاح إضافي لهزيمة أيّ مقاومة عربيّة أو مسلمة للهيمنة الأميركيّة ـ الإسرائيليّة.

التي ينفيها لويس نفيًا تامًا، بل يتجاوز ذلك إلى أنّـ «ـهُمْ» [المسلمين] محكومٌ عليهم بالغضب واللاعقلانيّة، كما «نحن» محكومٌ علينا بالتمتّع بعقلانيّتنا وتفوّقنا الثقافيّ. فنحن نمثّل العالَمَ الحقيقيّ، أي العَلْمانيّ؛ أمّا «هم» فيَشْكُون ويَبْكون ويُرْغُون ويُزْبدون في عالمٍ يكاد ألاّ يكون أكثرَ من وهمٍ صبيانيّ. وأخيرًا، فإنّ عالمنا «نحن» هو عالمُ إسرائيل والغرب؛ أمّا عالمهم فعالمُ الإسلام وما تبقّى. علينا «نحن» أن ندافِعَ عن أنفسنا ضدّهم لا عن طريق السياسة أو النقاش في المسائل، بل بالعداء غيرِ المشروط. لا عجبَ، إذن، أن تستَعير مقالةُ صموئيل هنتنِغتون عن صِدام الحضارات عنوانَها وأُطروحتها الأساسيّة من مقالة لويس.

أن نَصِفَ هذه الأفكارَ بالعدوانيّة واللاعقلانيّة ليس من المبالغةِ في شيء، ولا سيّما أنّ هذه الأفكارَ نفسَها بلغتْ نوعًا من التأليهِ في عمل صحافيّين كجوديث ميلر من **نيويورك تايمز**؛ فكتابُها **لله تسعةٌ وتسعون اسمًا: رحلةٌ مُراسلةٍ عبر شرقٍ أوسطَ مناضِل** (سايمون وتشاتستر، ١٩٩٦) هو بمثابة كتابٍ مدرسيّ عن نواقصِ تغطية الإعلام [الغربيّ] للإسلام وتشويهاتِها. وهناك براهينُ كثيرةٌ على ذلك في برامج التوك شو والحلقات الدراسيّة عن الشرق الأوسط، وتتّجر ميلر بـ «التهديد الإسلاميّ» على ما يَرِدُ في ندوةٍ شاركتْ فيها عام ١٩٩٣؛ ومهمّتُها المحدّدةُ هي أن تَدْفع قُدُمًا بأطروحةٍ ألفيّةٍ [عتيقة] مؤدّاها أنّ الإسلام المحارب خطرٌ على الغرب، وهي الفكرةُ عينُها التي تقع في لُبّ نقد صموئيل هنتِنْغتون عن «صِدام الحضارات.» وهكذا فإنّ البحثَ عن شيطانٍ أجنبيّ جديد، بعد الفراغ الثقافيّ المفتَرَض الذي خَلَقَه تفكّكُ الاتّحاد السوفياتيّ، قد حَطّ ـ كما حَطّ منذ بداية القرن الثامن بالنسبة إلى المسيحيّة الأوروبيّة ـ على الإسلام، الذي هو دينٌ يبدو قُربُه الفيزيولوجي وتحدّيه المتواصلُ للغرب (وهذا مصطلحٌ غامضٌ يستخدمه لويس وهنتنغتون للإشارة إلى حضارتنا «نحن» في مقابل حضارتهم «هُمْ») شيطانيّيْن وعنيفيْن اليومَ مثلما كانا في ذلك الزمن. ولا تَذْكر ميلر أنّ معظم الدول الإسلاميّة اليوم مصابةٌ بالفقر، والطغيان، والعجز العسكريّ والعلميّ الشديد إلى حدٍّ يستعصي أن تَكُونَ خطرًا على أيٍّ كان، باستثناء مواطنيها أنفسِهم. وهي لا تَغُوص في حقيقةِ أنّ أقوى تلك الدول ـ السعوديّة ومصر والأردن وباكستان ـ تدور في فلك الولايات المتّحدة تمامًا. إنّ ما يهمُّ بالنسبة إلى «خبراء» كميلر، وهنتنغتون، ومارتين كرايْمرْ، ودانيال پايپس، وباري روبن، إضافةً إلى كتيبة كاملةٍ من الأكاديميّين الإسرائيليّين، هو أن يتيقّنوا من بقاء ذلك «التهديد» ماثلاً أمام أعيننا، من أجل الإمعان في شجب الإسلام على إرهابه واستبدادِه وعنفِه، وأن يَضْمنوا لأنفسهم في الوقت عينه استشاراتٍ مربحةً وظهورًا تلفزيونيًا متكرّرًا وعقودًا نشريّةً لكتبهم. وأمام زبائن أميركيّين غير آبهين أساسًا، وفقراءَ في المعلوماتِ أصلاً، يُظْهَرُ الخطرُ الإسلاميُّ مخيفًا إلى درجةٍ مُبالغٍ فيها، وهذا ما يعزّز أطروحةً (توازي إلى حدٍّ مشوِّقٍ جنونَ الارتياب المعادي للساميّة) تقول بأنّ ثمّة مؤامرةً عالميّةً وراء كلّ انفجار.

لم يُفْلِح الإسلامُ السياسيُّ، بشكلٍ عامّ، في كلّ محاولاته عبر الأحزابِ الإسلاميّة في الوصول إلى السلطة.(*) قد تكون إيرانُ استثناءً، ولكنْ لا السودانُ (وهي دولةٌ إسلاميّةٌ في واقع الأمر) ولا الجزائرُ (الممزّقةُ بالصراع الدائر بين مجموعاتٍ إسلاميّة وعسكريتاريا وحشيّة)، ولا أفغانستانُ (وهي بلدٌ مضطربٌ فضلاً عن كونها اليوم مفرطةً في رجعيّتها)، فعلتْ سوى أن زادتْ في إفقار نفسِها وتهميش نفسِها على المسرح العالميّ. غير أنّه وراء خطاب «الخطر الإسلاميّ» في الغرب يتوارى شيءٌ من الحقيقة، وهو أنّ استحضاراتِ المسلمين للإسلام قد أجّجت

* ـ لم تكن «حماس» قد وصلتْ إلى السلطة حين كتب سعيد مقدّمته. (المترجم)

المقاومةَ (من الطراز الذي سمّاه إريك هوبسباوم تمرّدًا بدائيًا قبصناعيًا) هنا وهناك، في مواجهة «السلام» الأميركيّ ـ الإسرائيليّ على امتداد الشرق الأوسط. على أنّه لا حزبُ الله ولا حماس شكّلا عائقًا جدّيًا أمام المحْدلة المتواصلة لِما هو كلُّ شيءٍ إلاّ عمليّة سلميّة. ولعلّي أقول إنّ أكثرَ المسلمين العربِ اليومَ هم من الإحباط والذلّ، ومن التجذُّر باللايقين وبديكتاتوريّاتهم العاجزة والفظّة، بحيث يَعْجزون عن دعم أيّ شيءٍ يُشْبِه حملةً إسلاميّةً واسعةً ضدّ الغرب. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ النُّخب هناك، في غالبيّتها، متحالفةٌ مع الأنظمة، وتَدْعم القانونَ العُرفيَّ، الذي يتواصل في مصر منذ العام ١٩٤٦، فضلاً عن دعمها إجراءاتٍ فعّالةً أخرى غير قانونيّةٍ ضدّ «المتطرّفين.» فلماذا إذنْ نبراتُ التحذير والخوف في معظم النقاشات [الغربيّة] عن الإسلام؟ طبعًا ثمّة تفجيراتٌ انتحاريّةٌ وأعمالٌ إرهابيّةٌ شنيعةٌ، لكنْ هل أدّت هذه إلاّ إلى تقوية قبضة إسرائيل والولايات المتّحدة والأنظمةِ التابعةِ لها في العالم الإسلاميّ؟

الجوابُ، في اعتقادي، هو أنّ كتبًا ككتاب ميلر ذاتُ دلالةٍ أعراضيّةٍ من حيث تقديمها سلاحًا إضافيًا في السباقِ من أجل إخضاع وضرب وقَهْرِ وهزيمةِ أيّ مقاومةٍ عربيّةٍ أو مسلمةٍ للهيمنة الأميركيّة ـ الإسرائيليّة. علاوةً عن ذلك، فإنّ حملةَ معاداة الإسلام، بتبريرها (خلسةً) سياسةً من التشنُّج الموطّدِ العزمِ على ربط الإسلاميّة ـ أيًا ما كانت تدعو إلى الرثاء ـ بجزءٍ من العالم مهمٍّ من الناحية الاستراتيجيّة، وغنيٍّ بالنفط، تَمْحو عمليًا إمكانيّةَ أيّ نوعٍ من الحوار المتكافئ بين الإسلام والغرب [من جهة]، والعرب أو إسرائيل [من جهةٍ ثانية]. إنّ شيْطنة حضارةٍ بأكملها، ونزعَ الإنسانيّة عنها على أساس أنّها «حانقةٌ» على الحداثة، يَعْنيان تحويلَ المسلمين إلى أهدافٍ لاهتمام علاجيٍّ تأديبيّ [عقابيّ]. أنا لا أودّ أن يُساءَ فهمي هنا: فالتلاعبُ بالإسلام، أو بالمسيحيّة واليهوديّة (بقدْر ما يتعلّق ذلك بموضوعنا)، لأغراضٍ سياسيّةٍ تقهقريّة [نكوصيّة]، أمرٌ سيّئ إلى حدود الكارثة، وتَنبغي معاداتُه لا في السعوديّة والضفّة الغربيّة وغزّة وباكستان والسودان والجزائر وتونس فحسب، بل أيضًا في إسرائيل وفي أوساط المسيحيّين اليمينيّين في لبنان (الذين تُبدي ميلر تجاههم تعاطفًا غيرَ لائق) وفي أيّ مكانٍ تَظْهر فيه ميولٌ ثيوقراطيّة. كما أنّني لا أعتقد على الإطلاق أنّ أمراضَ البلاد العربيّة الإسلاميّة ناجمةٌ جميعها عن الصهيونيّة والإمبرياليّة. لكنّ ذلك بعيدٌ جدًا عن القول إنّ إسرائيل والولايات المتّحدة، ووكلاءهما الثقافيّين، لم يلعبوا دورًا قتاليًا، بل مُلْهِبًا، في وصم وتركيم الإساءات المؤذية على كلّ شيءٍ مجرّدٍ اسمُه «الإسلامُ،» من أجل الإثارة المتَعَمّدةِ لمشاعر الغضب والخوفِ تجاه الإسلام في نفوس الأميركيّين والأوروبيّين الذين يُؤْمرون أيضًا بأن يَروْا في إسرائيل ديموقراطيّةً ليبراليّةً علْمانيّةً. تقول ميلر، في نهاية كتابها، إنّ اليهوديّة اليمينيّة في إسرائيل هي «موضوعُ كتابٍ آخر»؛ والحال أنّه يَجْدر أن تكون جزءًا من الكتاب الذي كتبتُه الآن، إلاّ أنّها كبحتْ ذلك في سبيل مطاردةِ «الإسلام» [وحدَه].

إنّ الكتابة عن أيّ دينٍ آخر [غير الإسلام] أو أيّ جزءٍ آخر من العالم [غير العالم العربيّ الإسلاميّ] أمرٌ كانت ستُعتبر ميلر عديمةَ الكفاءة فيه إلى حدٍّ مُريع. ولكنّها تُخْبرنا في مناسباتٍ عدّةٍ أنّها متضلّعةٌ في الشرق الأوسط كشخصٍ محترفٍ منذ خمسة وعشرين عامًا، غير أنّها لا تمتلك أيّةَ معرفةٍ بالعربيّة ولا بالفارسيّة؛ وهي تُقرّ بأنّها تحتاج أينما ذهبتْ [في الشرق الأوسط] إلى مترجِم، مع أنّه لا وسيلةَ لتقييم دقّتِه أو درجةِ الاعتمادِ عليه. والحال أنّه يستحيلُ أن نأخُذَ على محمل الجدّ أيَّ مراسلٍ أو خبيرٍ في أمور روسيا وفرنسا وألمانيا وأميركا اللاتينيّة، وربّما الصين واليابان أيضًا، من دون أن يَعْرفا اللغات المطلوبة؛ أمّا بالنسبة إلى «الإسلام» فيبدو أنْ لا ضرورةَ للمعرفة اللغويّة [بالعربيّة أو الفارسيّة]... لأنّ ما يتمّ التعاملُ معه هنا يُعتَبر تشويهًا نفسيًا لا ثقافةً «حقيقيّةً» أو دينًا «حقيقيًا.»

إنّ معظمَ المصادر التي توردها ميلر في صفحات هوامشها متأثّرٌ بجهلها، إمّا لأنّها لا تستطيع أن توردَ إلاّ الأشياءَ التي تَعْلَمُ أصلاً أنّها تريدها بالإنجليزيّة، وإمّا لأنّها توردُ مصادرَ تتوافق آراؤها مع آرائها. وهكذا تَنغلق دونها، ودون قرّائها طبعًا، مكتبةٌ كاملةٌ من الباحثين العرب والمسلمين والباحثين اللااستشراقيّين. وكلّما حاولتْ أن تولّد فينا انطباعًا مؤثّرًا عن قدرتها على أن تقول جملةً أو اثنتيْن بالعربيّة، أخطأتْ دائمًا تقريبًا.

...

على المرء ألاّ يُسْمحَ له قطُّ بأن ينسى بعد ذلك أنّ ميلر هي في الأساس مراسلةٌ متحيِّزةٌ مدفوعةٌ [بأهواء] السياسة، وليست بباحثةٍ ولا خبيرةٍ، بل ولا كاتبةٍ متّسقةٍ، لأنّ معظمَ كتابها غيرُ مصنوعٍ من حججٍ وأفكار، وإنّما من مقابلاتٍ مفرطةِ الطول مع مَنْ يبدو أنّهم عددٌ وافرٌ من المسلمين المثيرين للشفقة، غير المُقْنِعين، الخادمين لذواتهم، ومن نقّادِهم أحيانًا. وما إنْ تتخطّى ميلر تواريخَها الصغيرة حتى تنحرف في أكثر التمعّجات مللاً وانعدامَ بنيان؛ وهو ما يَشْهد على «رولردكس»(*) طافحةٍ [بالأخبار والمعلومات السريعة] أكثر من اللزوم بدلاً من معرفتها الحقيقيّة بالمكان.

...

تموّه ميلر أوصافَها المهلهَلة بعبارة «صديقي،» التي تستخدمها لتُقْنِع قارئها بأنّها تَعْرف فعلاً الناسَ [الذين تكتبُ عنهم] وبأنّها من ثم تَعْرفُ ما تتحدّث عنه. فكأنّها تؤْمن بأنّ «أصدقاءها» يُخْبرونها أمورًا حميميّةً لا يستطيعُ أحدٌ غيرها أن ينتزعَها منهم. غير أنّ هذا التكنيك يولّد تشويهاتٍ مذهلةً، على شكل استطرادات طويلةٍ، على الرّغم من أنّ تلك الاستطرادات تَطْمس

* ـ علبة بطاقات يَسْهل التنقّل بينها بسهولة. (المترجم)

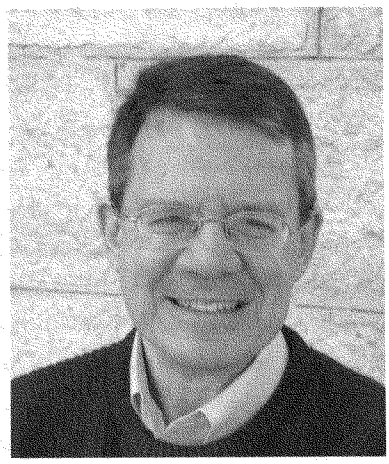

إنّ ما يهمّ بالنسبة إلى «خبراء» كصموئيل هنتنغتون ومارتن كرايمر هو أنّ يتيقّنوا من بقاء «تهديد» الإسلام ماثلاً أمام أعيننا.

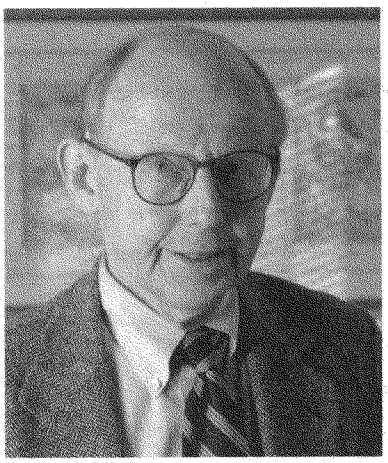

أو تتجاهل موادَّ ذاتَ صلةٍ أكبرَ بالموضوع (أو مساويةً في الأقلّ)، كالسياسات المحلّيّة، وكعمل المؤسّسات الدنيويّة، أو المبارزة الثقافيّة النشطة التي تجري بين الإسلاميّين وخصومهم القوميّين. ويبدو أنّها لم تَسمعْ قطّ بمحمّد أركون أو محمّد عابد الجابري أو جورج طرابيشي أو أدونيس أو حسن حنفي أو هشام جعيط، وأطروحاتُهم جميعِهم يَتمّ نقاشُها بشكلٍ حارٍّ على امتداد العالم الإسلاميّ.

...

من عادات ميلر الأخرى أن تُعْلم قرّاءها بالطائفة التي ينتمي إليها الجميعُ: ففلان الفلانيّ مسيحيّ، أو مسلم سُنّيّ، أو مسلمي شيعيّ، وهلمّ جرًا. لكنّها، بالنسبة إلى مَنْ يهتمّ كثيرًا بهذا البعد الخاصّ من أبعاد الحياة، ليست دائمًا دقيقةً، بل ترتكب أخطاءً مضحكةً مسلّيةً بعضَ الشيء. فهي تتحدّث عن هشام شرابي كـ «صديق» ولكنّها تُخطئ القولَ بأنّه مسيحيّ في حين أنّه مسلمٌ سُنّيّ؛ وتصف بدر الحاجّ بأنّه مسلم، في حين أنّه مسيحيٌّ ماروني. هذه الزلّات لم تكن لتكونَ بهذا السوء لو لم تصرّ ميلر على إبهارنا بسعة اطّلاعها ومعرفتها الحميمة بقدرٍ كبيرٍ من الناس. غير أنّ السمةَ الأكثر جدارةً بالملاحظة هي نيّتُها السيّئة المدهشة المتمثّلة في عدم الكشف عن خلفيّتها الدينيّة هي بالذات، ولا عن ميولها السياسيّة. فإزاء موضوع مشحونٍ كلّيًا بالعواطف الدينيّة والإيديولوجيّة، على ما تدّعي ذلك عن موضوعها، أجدُ غرابةً في أن تستطيعَ أن تفترضَ أنّ دينها (الذي لا أعتقد أنّه الإسلامُ أو الهندوسيّة) غيرُ ذي صلةٍ بالموضوع! وإنّ المرء ليَتساءَلُ كم من الأشخاص الذين انتُزِعَتِ المعلوماتِ منهم كانوا يَعْرفون مع مَنْ يتحدّثون تمامًا، وكم منهم كان يَمتلك أدنى فكرةٍ اليومَ عمّا قالته عنهم [في كتابها].

على أنّها صريحةٌ إلى حدٍّ مخجل في ردود فعلها على المتنفّذين في السلطة، وعلى حوادثَ معيّنة. فهي «تُصاب بالأسى» حين يُشخَّص داءُ الملك حسين بأنّه السرطان، مع أنّها تبدو قليلةَ الاكتراث بكونه يدير دولةً أمنيّةً ضحاياها الكثيرون عُذِّبوا أو سُجِنُوا ظلمًا أو قُتِلوا. وعيناها «تمتلئان بدموع الغضب» حين تَلْمح برهانًا على انتهاك حرْمة كنيسةٍ مسيحيّةٍ لبنانيّةٍ، لكنّها لا تبالي بذكْر انتهاكاتٍ أخرى، في إسرائيل مثلاً، للمقابر الإسلاميّة، ولمئات القرى المُبادة في سوريا ولبنان وفلسطين.

...

لعلّ أعظم وأثبتَ فشلٍ لها كصحافيّة هو أنّها ليست على استعدادٍ لأن تَرْبط وتحلّلَ غيرَ الأمور التي تلائم أطروحتَها السائدةَ عن طبيعة العالم الإسلاميّ الكفاحيّة المقيتة. أنا لا أجادل كثيرًا حيال النظرة العامّة التي تقول إنّ العالم العربيّ الإسلاميّ تحديدًا هو في وضع كريه، ولقد كتبتُ ذلك خلال العقود الثلاثة الأخيرة. غير أنّ ميلر لا تقدّم وإنْ صورةً دقيقةً بالحدّ الأدنى للدور الذي تَلْعبه في هذه الحالة إسرائيلُ والولاياتُ المتّحدة، وهي في الواقع تكاد لا تقرّر إلاّ بصعوبةٍ وجودَ سياسةٍ أميركيّةٍ حازمةٍ بمعاداة العرب والمسلمين (باستثناء الحالة «الأفغانيّة» التي تمرّ بها بلطفٍ مرورَ الكرام). خذوا لبنان مثلاً: فهي تَذْكر اغتيالَ بشير الجميّل عام ١٩٨٢ وتُعطي الناسَ الانطباعَ أنّه انتُخِبَ بتأييدٍ شعبيٍّ كاسح. وهي لا تشير، ولو إشارةً، إلى أنّه جاء إلى الحكم حين كان الجيشُ الإسرائيليُّ في بيروت الغربيّة، قُبَيْل مجازر مخيّمَيْ صبرا وشاتيلا، وأنّه كان طوال أعوام (بحسب المصادر الإسرائيليّة كأُوري لوبراني) رجلَ الموساد في لبنان. كما يتمّ تجاهلُ أنّه قاتلٌ وسفّاحٌ باعترافه، وتجاهُلُ أنّ بنية السلطة في لبنان حاليًا مليئةٌ بأشخاص كإيلي حبيقة المتّهم مباشرةً بمجازر المخيّمَيْن. وكان يُمْكن عند إيرادها حالاتٍ من المعاداة العربيّة للساميّة أن تَلْحظ وجودَ خطاب جذريّ داخل إسرائيل موجّهٍ ضدّ العرب والمسلمين. أمّا بخصوص حروب إسرائيل على المدنيّين، الحملة الطويلة الثابتة المنهجة ضدّ سجناء الحرب وسكّان المخيّمات، وتهديم القرى، وقصف المستشفيات والمدارس،

والخلق المتعمَّد لمئات آلاف اللاجئين ـ فكلُّ ذلك يُدفن (إنْ ذُكِرَ أصلاً) في هذرٍ متدفّق. إنّ مشكلةَ ميلر في العمق هي احتقارُها للوقائع الجديرة بأكثر التفكيكيّين خفّةً، غير أنّ الكلام اللامتناهي الذي توردُه وسيلةٌ لتحويل المسلمين إلى ضحايا «يستحقّون» الإرهابَ الإسرائيلي والدعم الأميركيَّ له يَعْكس الكثيرَ عنها بوصفها ممثِّلةً ممتازةً للتغطية الراهنة للشرق الأوسط في وسائل الإعلام السائدة.

...

في ١٩٩٦/٤/١ أوردت **التايمز** أنّ إسرائيل قصفتْ جنوبَ لبنان وقتلتْ مدنيّين. وذكر التقريرُ، الغُفْلُ من التوقيع، أنّ حزب الله المناضل «هدّد بالردّ،» متابعًا القول إنّ «التوتُّر تصاعد على جانبَي الحدود منذ أن قَتَلَ مقاتلو [حزب الله] ستّة جنودٍ إسرائيليّين خلال الشهر الماضي في الشريط الحدوديّ من جنوب لبنان الذي تحتلّه إسرائيل.» في العادة طبعًا يحقّ لمقاتلي حروب العصابات أن يقاتلوا جنودَ الجيش المحتلّ، غير أنّ المبدأ هنا يُبْطَل منذ البداية بسبب الإحالات على حزبٍ «إسلاميٍّ مناضل،» وهي إحالاتٌ تَستحضرُ في ذهن القارئ ارتباطاتٍ بالأصوليّة وخطرِ الإسلام وهلمّ جرًا. وبحلول العاشر من نيسان (في تقرير لمراسل **التايمز** الإسرائيليّ جولْ غرينبرغ) دخلت التقاريرَ عبارةُ «المدعوم من حكومة إيران المُدارة شيعيًا» [في وصف حزب الله]، ولم تغادرْ أيَّ خبر لـ **التايمز** حتى نهاية الغزو الإسرائيليّ بعد أسبوعين. ويبدو أنّ **التايمز**، في ما يخصّ إسرائيلَ، تُريد أن يكون معلومًا أنّ أعداءَ هذا البلدِ مسلمون مناضلون (وسرعان ما سيصيرون «إرهابيّين») لا رجالُ حربِ عصاباتٍ يقاومون الاحتلالَ. وفي ١٢ نيسان (أبريل) يتحدّث شميمان عن حزب الله بوصفه «منظّمةً شيعيّةً مسلمةً مناضلةً مدعومةً من إيران» وكأنّه يقول: انتبهوا، ها قد عاد المسلمون المجانين من جديد، ليَقْتلوا اليهودَ كعادتهم. وتَظْهر الإشاراتُ إلى «سكّان كريات شمونة الإسرائيليّين المذعورين» في المقالة نفسها، مع أنّ إسرائيل كانت في الفترة ذاتها تَقْصف بيروتَ، المدينةَ التي كانت ملأى بالسكّانِ المذعورين الذين لم يُذْكروا في تلك المقالة.

وفي انتصارٍ واضحٍ للإيديولوجيا على الحقائق عُنْونت افتتاحيّةُ **التايمز** في اليوم نفسه كالآتي: «ردّ إسرائيل على الإرهاب،» زاعمةً أنّ «ضرباتِ إسرائيل الجوّيّة ضدّ الأهداف الإرهابيّة في لبنان كانت مبرَّرةً ومحدّدةً... إنّ مسؤوليّة الغارات البارحة في لبنان وضحايا الأسبوع الذي سَقَطوا بلا معنًى على جانبي الحدود تقع بشكلٍ لا يَقْبل اللَّبْسَ على إرهابيّي حزب الله وعلى الحكومتيْن في بيروت ودمشق. إنّ السيّد بيريز في هذه الحال لم يفْعل سوى ممارسة حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها.» هذه العبارات أُطلقتْ حين كان الجيشُ الإسرائيليّ في خضمّ عمليّة تهجير ٢٠٠ ألف مواطن من جنوب لبنان، وذلك بعد أن قَصَفَ هذه المنطقةَ جوًّا وبرًّا وبحرًا، وواصل احتلالَه العسكريَّ (وهذا أمرٌ ينبغي تذكّرُه) ـ وهو ما تسمح قوانينُ الحرب للمواطنين بمقاومته. لكنّ الآية انعكستْ، **أوّلاً** لأنّ إسرائيل هي التي كانت موضعَ مساءلة، **وثانيًا** لأنّ «الإسلام» هو الذي كان يشكّل «تهديدًا.» وبحلول ١٨ نيسان (أبريل)، وهو اليوم الذي قَصفتْ فيه إسرائيلُ موقعًا للأمم المتّحدة في قانا، وكانت عليه إشارةٌ واضحةٌ تبيّن أنّه ملاذٌ للآجئين المدنيّين اللبنانيّين من الحرب، فقتلتْ ما يفوق مئةَ شخص، أوردت **التايمز** أنّ الولايات المتّحدة وشيمون بيريز أسفا للخسارة في الأرواح، لكنّهما كانا ما يزالان يَعتبران حزبَ الله مسؤولاً عن «خرق اتّفاق العام ١٩٩٣ من دون استفزاز» (٢١ نيسان/أبريل). وعلى امتداد الحملة العسكريّة الإسرائيليّة على لبنان لم تنشر **التايمز** أيّةَ مقالةِ رأيٍ أو افتتاحيّةٍ تعبِّر عن وجهة نظر مختلفةٍ عن وجهة نظر حكومتيْ إسرائيل أو الولايات المتّحدة؛ كانت سوريا وإيران، فوق كلّ شيء، تهمّان أكثرَ من اللبنانيّين أو من حزبِ الله السيّئي الطالع، وكأنّ ما يجري في جنوب لبنان أضخمُ وأبعدُ أثرًا من مجرّد احتلالٍ ومواجهاتٍ لهذا الاحتلال. إنّه «الإسلام» في مواجهة «الغرب» من جديد.

...

إنّ التشويهاتِ وإساءاتِ التمثيل التي تُرتكب في تصوير الإعلام [الغربيّ] للإسلام اليوم لا تنمّ عن رغبةٍ حقيقيّةٍ في الفهم، ولا عن إرادة في سماعِ ورؤيةِ ما ينبغي سماعُه ورؤيتُه. إنّ الصور والعمليّات التي نَقلها الإعلامُ عن الإسلام، لكي يتأمّلها مستهلكُ المعلوماتِ الغربيُّ، بعيدةٌ من أن تكون شهاداتٍ ساذجةً أو براغماتيّةً عن الإسلام، تُديم العداوةَ والجهلَ لأسبابٍ حَلَّلها تحليلاً جيّدًا جدًا نوامْ تشومسكي في سلسلةٍ طويلةٍ من الكتب (**تصنيعُ الإذعان** مع إدوارد س. هيرمان، **وثقافةُ الإرهاب**، **وردعُ الديموقراطيّة** بشكلٍ خاصّ). ولكنْ أيًا كانت الحوافزُ التي نعزو إليها هذا الوضعَ الذي (على ما قلتُ في البداية) قد غدا أسوأَ بكثيرٍ منذ ظهرت الطبعةُ الأولى من **تغطية الإسلام** عامَ ١٩٨٠، فإنّ الحقيقة تبقى أنّ ندرةً قليلةً على درب الحوار والتبادل ـ وكلاهما يَحْصل في ميدان السجال البحثيّ، والإنتاج الفنّي، واللقاءاتِ بين الأشخاص العاديّين الذين يَعلمون ويتفاعلون ويتحدّثون بعضُهم إلى بعض، بدلاً من أن يَخْطب بعضُهم على مسمع البعض [بفوقيّة] ـ هي ما يتسرّبُ إلى المجال العامّ الذي تسيطر عليه وسائلُ الإعلام سيطرةً شديدة. إنّ الإثاريّة [نزعةَ الإثارة]، ورُهابَ الأجانب الفظّ، والعدائيّةَ اللاحسّاسة، هي الحالةُ الغالبةُ اليوم، مع ما يترتّبُ على ذلك من نتائج غير مشرّفة أبدًا على جانبَي الفالق الوهميِّ الفاصلِ «بيننا» و«بينهم.» وأملي أنْ تكون الجهودُ المتواضعةُ، كهذا الكتاب، بمثابة ترياقٍ للإشارة إلى مكامن الخطإ، وإلى ما يُمْكن فعلُهُ في ميدانِ الوعي والكشف، من أجل تخفيف حدّةِ تراكمِ الآثار السلبيّة الهائلة.

نيويورك